PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(12): 1788-1803
ISSN: 1553-6939

Islamic psychology and Epistmological Questions: A Critical Analytical Study of Contemporary Psychology in Light of the Qur'anic Perspective on the concept of man.

Abdellatif Mimouni[1], Razi Nadia[2]

[1]Emir Abd El Kader University, Research in laboratory in comparative legal and Jurisprudential Studies (Algeria).

[2]Emir Abd El Kader University, Research in laboratory in comparative legal and Jurisprudential Studies (Algeria). (Algeria).

The Author's Email: a.mimouni@univ-emir.dz[1], Razi.Nadia@yahoo.fr[2]

Received: 04/2024 **Published: 12/2024**

Abstract:

Modern psychology suffers from epistemological problems represented by the presence of the concept of man in the material dimension, the predominance of the experimental method, And its lack of objectivity, neutrality, and transcendence. These problemses have directed studies towards establishing Islamic psychology as in alternative. Its featuresappeared in detail in the scholars deductions from The Quran, The Sunnah, and the writings of predecessors such as Al-Kindi, Ibn Sina, Al-Ghazali, Al-Razi, Ibn Taymiyyah and their likes.

Undrerstanding the Epistemological the Dilemmans if Objection to the Establishment of Islamic psychology Similar to thedifficulty of rooting Arab psychology in absolute dependency, and the fact that it lacks a special terminological dictionary, in addition to the sterility of its methods, and the difficulty of codifing it in the mides of the multiplicity of intellectel schools and the differences in interpretive approaches in the Islqmic circle.

Keywords: Psychology, modern psychology, Islqmic psychology, self, man.

علم النفس الإسلامي والأسئلة الإبستمولوجية: دراسة تحليلية نقدية لعلم النفس الحديث في ضوء المنظور القرآني لمفهوم الإنسان".

عبد اللطيف ميموني[1]، أ.د نادية رازي[2]

[1]جامعة الأمير القادر للعلوم الإسلامية، مخبر البحث في الدراسات القانونية والفقهية المقارنة (الجزائر).

[2]جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مخبر البحث في الدراسات القانونية والفقهية المقارنة (الجزائر).

ملخص

يعاني علم النفس الحديث من إشكالات معرفية تتمثل في حصر مفهوم الإنسان في البعد المادي، والإيغال في المنهج التجريبي، وافتقاره إلى الموضوعية والحياد؛ ولتجاوز هذه الإشكالات توجَّهت الدراسات نحو تأسيس علم نفس إسلامي كبديل؛ حيث ظهرت معالمه مبكرا في استنباطات العلماء من الكتاب والسنة، و كتابات السابقين كالكندي، وابن سينا، والغزالي، والرازي، وابن تيمية، وأضرابهم.

ثمة معضلات إبستمولوجية تعترض تأسيس علم النفس الإسلامي على غرار عسر تأصيل علم النفس الغربي في ظل التبعية المطلقة، وكونه يفتقر إلى قاموس مصطلحي خاص، إضافة إلى عقم مناهجه، وصعوبة تدوينه في خضم تعدد المدراس الفكرية واختلاف المناهج التأويلية في الدائرة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: علم النفس، علم النفس الحديث، علم النفس الإسلامي، النفس، الإنسان.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فالتكامل المعرفي بين العلوم أمر حتمي لا يمكن الاستغناء عنه بحال؛ لأن العلوم يخدم بعضها بعضا، ويتقاطع بعضها مع بعض، وينبثق بعضها من بعض، وهو حركة علمية يكون فيه تجميع المعارف والتجارب من تخصصات متنوعة، وميادين علمية مختلفة، ومجالات متعددة؛ من أجل فهم موضوع ما بشكل شامل وعميق، وإن شئت قلت هو استمدادُ العلوم واستنجادُها واستفادتها بعضها من بعض، في قواعدها المنهجية؛ وأدواتها المعرفية؛ ومباحثها العلمية[1]، حيث يتم دمج مسالك المعرفة المتباينة في مسلك واحد متداخل ومتشابك ومنسجم، يتيح القدرة على تفسير كلي للكون، وفهم ظواهره المختلفة وفق رؤية شاملة متناسقة [2].

والسبب الذي يدعو إلى هذا التكامل هو الوحدة الغائية والوظيفية لهذه العلوم، سواء كانت وحيا ربانيا أو اجتهادا إنسانيا ؛ حيث إنها تهدف إلى خدمة الإنسان وتوجيهه ليكون خليفة الله في الأرض كما أراده ربه عز وجل، وهو نابع من الوحي، ومستمد من وحدانية الخالق جل جلاله، كما تجدر الإشارة إلى أن تفكيك العلوم والإيغال في التخصص النابع عن الحداثة؛ أحدث اضطرابا لدى الإنسان في قراءته للكون والوجود قراءة كلية شمولية؛ فنشأت قراءات قاصرة مجتزأة[3].

والناظر في التراث يجد التكامل بين العلوم، والترابط بين المعارف، والتداخل بين قضاياها ميسما لائحا في الثقافة الإسلامية، ومن أوضح البراهين عليه الموسوعية المعرفية التي اتصف بها العلماء المسلمون التي لا يسع أحدا إنكارها، وقد كانوا ينصحون بضرورة الاهتمام بالعلوم المختلفة في كتبهم ومصنفاتهم.

ومن ضروب التكامل المعرفي التكامل بين العلوم الإنسانية؛ التكامل بين علم النفس وعلوم الشريعة؛ حيث أضحت علوم كالمقاصد وأصول الفقه تدرس مباحث متعلقة بعلم النفس؛ على غرار الدوافع والنيات والبواعث والفطرة البشرية ومراعاتها في الخطاب الشرعي؛ وعلاقة كل ذلك بالتكليف الإلهي؛ ونحو ذلك من المواضيع.

ومن المباحث الجديرة بالبحث في خضم هذا التكامل ما يسمى "بعلم النفس الإسلامي"؛ ذلكم الموضوع الذي خاض فيه الكثير، وكتبت فيه دراسات عديدة وبحوث جديدة؛ أغلبها يدور بين الدراسة التاريخية وبين محاولة أسلمة المعارف الغربية؛ مع لَيٍّ لأعناق النصوص الشرعية؛ وعزل تام لها عن سياقاتها الورودية، وقد كان الأجدر قبل الخوض في غمار هذه المفازة الواسعة؛ بحث الدواعي والمبررات؛ ووضع الأسس والمرتكزات، وبيان المناهج الموجهات؛ ورسم

الخطط الواضحات؛ لذلك كانت هذه الدراسة الموسومة ب:**"علم النفس الإسلامي والأسئلة الإبستمولوجية: دراسة تحليلية نقدية لعلم النفس الحديث في ضوء المنظور القرآني لمفهوم الإنسان"** لبحث التساؤلات الآتية:

- إذا وجد من ينادي بضرورة تأسيس علم نفس إسلامي؛ فما هي دواعي تأسيسه وما مبررات إنشائه؟

- إذا كان علم النفس الإسلامي بديلا لعلم النفس الحديث؛ فما هي أهم الانتقادات الموجهة لعلم النفس الحديث؟

- إذا وجدت دواعي تأسيس علم النفس الإسلامي ومبررات بنائه؛ فما هي معالم وجوده؟ ومن هم أهم رجالاته؟ وما هي أهم المعضلات العلمية التي تعترض تأسيسه؟

وقد اعتمدت في بحث الموضوع ثلاثة مناهج رئيسة:

1. **المنهج الاستقرائيّ**؛ لتتبُّع الآراء الواردة في الموضوع.
2. **المنهج المقارن**؛ للمقارنة بين الاتِّجاهات المختلفة.
3. **المنهج التَّحليليّ**؛ الذي يتأسَّس على **تفسير** مختلف الرؤى والأقوال المعروضة ونقدها؛ **واستنباط** ما أمكن استنباطه من نتائج.

هذا وتهدف الدراسة إلى الوقوف على الدواعي التي حملت على المطالبة بتأسيس علم نفس إسلامي؛ وكذا بيان معالمه؛ والكشف عن أهم الإشكالات المنهجية والعقبات الإبستمولوجية لهذا العلم.
وللإجابة عن هذه التساؤلات سلكت الخطة الآتية:

مقدمة تشتمل على التعريف بالموضوع وبيان أهميته وإشكاليته وذكر المنهج المعتمد وأهداف الدراسة.

مبحث تمهيدي: مفهوم علم النفس الإسلامي والإبستمولوجيا.

المطلب الأول: مفهوم علم النفس الإسلامي.

المطلب الثاني: مفهوم الإبستمولوجيا.

المبحث الأول: دواعي تأسيس علم النفس الإسلامي ومبرراته.

المطلب الأول: إشكالات علم النفس الحديث.

المطلب الثاني: البدائل المقترحة لتجاوز إشكالات علم النفس.

المبحث الثاني: معالم علم النفس الإسلامي ومعضلاته الإبستمولوجية.

المطلب الأول: معالم علم النفس الإسلامي.

المطلب الثاني: معضلات علم النفس الإسلامي الإبستمولوجية.

خاتمة مذيلة بأهم النتائج وأبرز التوصيات.

مبحث تمهيدي: مفهوم علم النفس الإسلامي والإبستمولوجيا:

قبل الولوج إلى عرض الموضوع وشرحه؛ يحسن ضبط المصطلحات التي تكوّن العنوان العام للبحث؛ وذلك من ببيان مضمون المصطلحين الآتيين: علم النفس الإسلامي والإبستمولوجيا.

المطلب الأول: مفهوم علم النفس الإسلامي:

لا يتأتى تعريف علم النفس الإسلامي كمركَّب إلا بتعريف ألفاظ التركيب؛ وهما: علم النفس باعتباره عَلَمًا ولقبا، ثم تعريفه بإضفاء وصف "الإسلامي" عليه.

الفرع الأول: تعريف علم النفس:

يعرف علم النفس عند المعاصرين بأنه البحث في ظواهر النفس الإنسانية الشعورية واللاشعورية؛ للكشف عن قوانينها العامة، ويسمى علم السيكولوجيا، وقد أخذ مناح وفروعا متعددة، وذلك بحسب الموضوع الذي يتناوله؛ فمثلا إذا كان بحثه في السلوك بوجه عام، سمي بعلم النفس السلوكي؛ وإن كان يبحث في الانفعالات والنزعات وردود الأفعال، سمي علم النفس الشعوري؛ وإن كان يبحث في الأفكار ونقدها وصفاتها وشروطها وروابطها الضرورية وقيمتها، سمي بعلم النفس التأملي؛ وهكذا بحسب موضوع الدراسة، ولعلم النفس ميادين كثيرة، فهو يتناول الإنسان والحيوان، والكبار والصغار، والذكور والإناث، والمرضى والأصحاء، والأفراد والجماعات، وهو أيضا يطبق قوانينه العامة في عدة مجالات، كالمجال الصناعي، والمجال التربوي، والمجال الطبي، والمجال الجنائي والمجال السياسي والمجال الحربي وهلم جرا[4].

وقد خلص كثير من الباحثين إلى أن علم النفس الحديث هو دراسة السلوك الإنساني أصالة، والحيواني تبعا من أجل فهم دقيق السلوك الإنساني[5]، أو هو دراسة العقل والسلوك[6].

الفرع الثاني: تعريف علم النفس الإسلامي:

يعتبر مصطلح "علم النفس الإسلامي" من المصطلحات التي لم يتفق بعد على مضمونها من قبل الباحثين، وهي إحدى مشكلات هذا العلم كما سيأتي بيانه؛ بسبب ضبابية وجهة أنصاره، وكذا بسبب الانتقادات الموجهة للمصطلح نفسه من قبل المعارضين لهذا التوجه، ولعل أقدم تعريف وأجمعه هو ما جاء في كتاب "مدخل إلى علم النفس الإسلامي" لمحمد عثمان نجاتي بأنه: "علم النفس القائم على أساس التصور الإسلامي للإنسان، وعلى أساس مبادئ الإسلام وحقائق الشريعة الإسلامية"[7]، وهذا التعريف يقوم على مرتكزين:

الأول: يتأسَّس علم النفس الإسلامي على أساس مفهوم الإنسان في نظرة الإسلام، أي ذلك المخلوق المتكون من جسد وروح، المتميز بالعقل؛ الذي سخر كل الكون لأجله، وهو ما يفترق عن نظرة علم النفس المعاصر الذي أقصى الجانب الروحي للإنسان مكتفيا بالجزء المادي.

الثاني: ينبني علم النفس الإسلامي على أساس مبادئ الإسلام وأصول الشريعة، ومعنى هذا أنه ينبغي لمسائل علم النفس ومضامينه ألا تخالف هذه الأصول، وهو ما يقتضي تهذيب علم النفس المعاصر من الأمور المتناقضة مع قواطع الإسلام.

ولكن يعترض على هذا التعريف أنه لم يبيّن طبيعة العلاقة بين علم النفس والإسلام ولا أبعادها ولا تفاصيلها بما يزيح اللبس المنسدل على المصطلح، كما أنه يفهم من هذه التسمية اختزال النفس البشرية في دين بعينه، وهو الدين الإسلامي، وأيضا دراستها بأدوات إسلامية بحتة، مما يلزم عنه افتراض أن النفس البشرية مؤمنة بالفطرة؛ وهذا يتنافى مع

طبيعة العلم الذي لا يمكن أن يتحيز لدين أو جنس، ولذلك يُقترح أن يتوجَّه الطَّرح ل"العلاج النفسي الإسلامي" كضرب من ضروب العلاج النفسي، أو "علم النفس الإسلامي" كفرع من فروع علم النفس الديني، لا أن يكون مضاهيا لعلم النفس العام[8].

وتبقى الانتقادات الموجَّهة لمصطلح "علم النفس الإسلامي" غير سديدة؛ فالاعتراض القائل بأن وصف علم النفس بكونه إسلاميا يقتضي تحيُّز العلم لدين معين، وهو ما يتنافى مع طبيعة العلوم، أمر صحيح ولكنه منقبة لا منقصة؛ لأن الإسلام له مفهومه المتميز للنفس والإنسان، وله مناهجه المتفردة في التعامل معهما و الكشف عن أمراضهما وحل مشكلاتهما.

وأما فكرة أن العلوم تمتاز بالحياد والموضوعية فغير صحيحة؛ لأن الباحث في أي مجال كان خاصة المجالات الاجتماعية والإنسانية لا يمكن أن يتجرد عن معتقداته وأفكاره وتوجهاته وثقافته، وهذه العلوم حينما تستهلك تكون مشحونة بثقافة المجتمع المنتج ومعتقداته وإيديولوجيته؛ فمن العجب أن ينتقد ذلك على المسلمين ولا ينتقد على غيرهم.

ومحصل الكلام أن مصطلح علم النفس الإسلامي مصطلح سائغ ومشروع من الناحية المعرفية، ولا مشاحة في الاصطلاح، لكنه يفتقر إلى مزيد من البيان عن محتواه، والكشف عن مضامينه وأبعاده ومناهجه، وتوجيه بوصلته، وإيضاح رؤيته ومعالمه؛ حتى يتخلَّص مما قد يشاكله في المفهوم، أو يشابهه في المعنى، أو يزاحمه في المحتوى؛ وهذا أمر يتوقف على المدافعين عنه، المؤيدين لتأسيسه.

المطلب الثاني: مفهوم الإبستمولوجيا:

جاء في المعجم الفلسفي: "الإبستمولوجيا لفظ مركب من لفظين: أحدهما ابيستما وهو العلم، والآخر لوغوس وهو النظرية أو الدراسة، فمعنى الابستمولوجيا إذن نظرية العلوم أو فلسفة العلوم؛ أعني دراسة مبادئ العلوم، وفرضياتها، ونتائجها دراسة انتقادية توصل إلى إبراز أصلها المنطقي، وقيمتها الموضوعية"[9].

وتعد الإبستمولوجيا مقدمة ضرورية من مقدمات نظرية المعرفة، ولكنها ليست هي هي، بل تختلف عنها من جهة أن نظرية المعرفة تبحث في إمكانية المعرفة وأصولها وطبيعتها وحدودها، وأما الإبستمولوجيا فتدرس تطور هذه المعرفة ونموها في علم معين وموضوع معين، من جهة كونها معرفة بعدية مفصلة على أبعاد العلوم وأبعاد موضوعاتها، أومن زاوية التطور العلمي المستمر، ويترادف مصطلح الإبستمولوجيا مع نظرية المعرفة في الإنجليزية، وأما في الفرنسية فالأمر مختلف؛ لأن الفلاسفة الفرنسيين يطلقون مصطلح الإبستمولوجيا على فلسفة العلوم وتاريخها الفلسفي، وقد يطلقه بعضهم على سيكولوجية العلوم؛ لكون الدراسة المتعلقة بتطور العلوم لا تنفك عن النقد المنطقي لها، ولا عن مضمونها الحسي المشخص [10].

المبحث الأول: دواعي تأسيس علم نفس إسلامي ومبرراته:

من المعلوم أن علم النفس كان أحد فروع الفلسفة وجزءا لا يتجزأ من أجزائها، حيث كانت معظم مباحثه تُدرس ضمن مباحث الفلسفة؛ فهو منبثق منها ومتفرع عنها، ويرى المتخصصون في هذا العلم أن علم النفس لم يطلِّق الفلسفة ولم ينفصل عنها بشكل نهائي؛ وإنما غيَّر من فلسفته لأنه يدور حول سؤال رئيس لا يستطيع الانفكاك عنه؛ وهو: ما الإنسان؟[11]

ولكن سؤال ما الإنسان باعتباره موضوعا لعلم النفس هو موضوع واسع، وتعريف جامع غير مانع؛ لأن الإنسان في الحقيقة هو موضوع كل العلوم، ولكن من حيثيات مختلفة وأنظار متباينة؛ فموضوع علم الأحياء هو دراسة تطور

الكائنات الحية بما فيها الإنسان؛ وموضوع علم الطب أو الفيزيولوجيا هو الإنسان من حيث وظائف أعضائه المختلفة وبناؤها وانتظامها وعلاقتها في الصحة والمرض؛ وموضوع علم الأنثربولوجيا هو الإنسان من حيث تفاعله مع بيئته، وهكذا كل العلوم تدرس جزءا من الإنسان، وتهدف إلى تمكين الإنسان من التحكم في بيئته الطبيعية، والسيطرة على محيطه الاجتماعي والثقافي، وبذلك فإذا أمعنا النظر نجد أن موضوع علم النفس الدقيق هو دراسة السلوك الإنساني بالدرجة الأولى، وكذا السلوك الحيواني بدرجة ثانية، إذا كانت دراسته تساعد على فهم أفضل للسلوك الإنساني[12].

والإشكال المراد الإجابة عنه في هذا المبحث هو: إذا كان علم النفس الإسلامي بديلا عن علم النفس الغربي؛ تفرَّع عنه وظهر على أنقاضه؛ فما هي الدواعي والمبررات التي أفضت إلى التفكير والبحث لابتكار وتأسيس علم نفس إسلامي؟

وللجواب عن هذا السؤال أعقد مطلبين:

الأول: أستحضر فيه بعض الإشكالات المعرفية والفلسفية التي يعاني منها علم النفس الحديث.

والثاني: أطرح فيه أهم الحلول والبدائل لتجاوز تلك الإشكالات.

المطلب الأول: أهم إشكالات علم النفس الحديث:

يمكن أن نحصر أهم إشكالات علم النفس الحديث في ثلاثة؛ هي:

الأول: حصر مفهوم الإنسان في البعد المادي.

الثاني: الإيغال في المنهج التجريبي.

الثالث: تهافت الموضوعية وحتمية التحيز.

ولبيان هذه الإشكالات وشرحها نعقد الفروع الآتية:

الفرع الأول: حصر مفهوم الإنسان في البعد المادي:

ما دام علم النفس قد ظهر في الغرب وتطور هناك ؛ واستخرجت قوانينه من التجارب المطبقة على الإنسان الغربي؛ فإنَّ نوع الإنسان الذي يدرس في علم النفس الآن – نظرا للخلفيات الحضارية والتاريخية والإيديولوجية -: هو الإنسان بالمفهوم الغربي؛ أي الإنسان الذي يتشكل من بعد مادي بحت لا روح فيه ولا بعد غيبي له، فهو يدرس الإنسان على أنه شيء من الأشياء الموجودة في العالم[13].

وبعد بروز نظرية التطور إلى الساحة الأكاديمية؛ واعتمادها علميا في نشوء الإنسان وإقصاء ما عداها من النظريات؛ أصبح علم النفس يدرس الإنسان على أنه حيوان متطور، يلاحظ سلوكه كما يلاحظ سلوك بقية الأحياء، وكل الاتجاهات الكبرى في هذا العلم تنطلق من التصور المادي الحيواني للإنسان، وتختزل مفهوم الإنسان في البعد الغريزي الصِّرف، وهذا يتصادم مع النظرة القرآنية للإنسان[14].

ويمكن تفسير سبب القصور الذي يعتري علم النفس الحديث في دراسة الإنسان؛ بأن علماء النفس يقسمون العوامل المحددة للشخصية الإنسانية إلى قسمين: عوامل وراثية داخلية ترجع إلى التكوين الذاتي للفرد، وعوامل بيئية خارجية متعلقة بالأسرة والمجتمع والثقافة، وحينما يدرسون المحددات الوراثية يقصرونها على العوامل الجسمية البيولوجية؛ وهذا

تمشيا مع أسلوبهم في البحث العلمي الذي يقتصر على ما يمكن ملاحظته وإخضاعه للتجارب العلمية في المختبرات، إذًا فهم لا يعرفون المنهج العلمي المناسب للتعامل مع الجانب الروحي[15].

الفرع الثاني: الإيغال في المنهج التجريبي:

حينما بالغ الباحثون في علم النفس الحديث في تطبيق المنهج التجريبي المستخدم في العلوم الطبيعية؛ حصروا هذا العلم في الظواهر النفسية التي يمكن ملاحظتها ودراستها دراسة موضوعية، فأهملوا بذلك كثيرا من الظواهر النفسية الهامة التي لا يمكن أن يستوعبها المنهج التجريبي، بل وأبعدوا النفس الإنسانية ذاتها؛ "لأن النفس شيء لا يمكن ملاحظته، وقصروا دراستهم على السلوك الذي يمكن ملاحظته وقياسه، وقد نادى بعضهم بتغيير اسم علم النفس وتسميته بعلم السلوك؛ لأن علم النفس الحديث يدرس السلوك ولا يدرس النفس، وكان من نتيجة هذا الاتجاه في تطبيق مناهج العلوم الطبيعية في بحوث علم النفس أن سادت في دراساته وجهة النظر المادية التي ترجع جميع الظواهر النفسية إلى العمليات الفسيولوجية، والتي تنظر إلى الإنسان كنظرتهم للحيوان"[16].

والحاصل أن الاكتفاء بالمنهج القائم على التجربة والملاحظة في الدراسات النفسية دونما سواه؛ أفضى إلى إقصاء كثير من الظواهر النفسية المهمة، التي تعد لبَّ هذا العلم وأساسه؛ لأنها شردت عن هذا المنهج الذي لا يمكنه الإحاطة بها، كما أدت إلى أن يتوجه علم النفس باتجاه علم وظائف الأعضاء، إذ يتم تفسير جميع الظواهر النفسية تفسيرا فسيولوجيا ماديا بحتا، إضافة إلى أنهم جعلوا من دراسة سلوك الحيوان مقدمة لفهم سلوك الإنسان؛ معرضين بذلك عن أهم عنصر من عناصر النفس الذي يتميز به الإنسان عن الحيوان وهو الروح والفطرة ومطالبهما السامية، لكونه يمثل البون الشاسع بينهما، مما يؤدي إلى اختلاف كبير في طبيعة النتائج المتوصل إليها.

الفرع الثالث: تهافت الموضوعية وحتمية التحيز:

ما يسمى بالحياد العلمي والموضوعية المطلقة أو النسبية في حدود ضيقة في الدراسات الغربية مجرد تضليل؛ ذلك أن الباحث في أي مجال كان، لاسيما المجالات التي لها علاقة بالمجتمع والواقع؛ لا يمكن أن يتجرد عن خلفياته الدينية والتاريخية والحضارية والإيديولوجية، ولا بد أن يتأثر فيها الباحث بالدين والمعتقد والواقع المهيمن[17].

فالعلوم عموما ولاسيما الاجتماعية استحدثت لتؤدي وظيفة مباشرة؛ أي نشأت لتخدم المجتمع الذي ظهرت فيه؛ ولذلك فهي بالضرورة تتأثر بالحضارة السائدة في تلك البيئة، وتتبنى القيم والأخلاق التي يمليها المجتمع عليها[18]، وحينما ننقل علما من مجتمع لآخر فنحن ننقل قيم المجتمع المصدر وعاداته وأخلاقه وثقافته، وهذا يؤدي عن غير قصد إلى الاستعمار الحضاري زيادة على الاستعمار العلمي[19].

وقد أجرى الباحثون دراسة مقارنة بين علم الشرقي السوفياتي وعلم النفس الغربي الأمريكي؛ وقد وجدوا – بالرغم من اتحاد الأصل- أنهما يختلفان في الوظائف التي يؤديانها والقيم التي ينشرانها؛ فعلم النفس المجتمع الشرقي يخدم مبادئ الجماعية والمساواة والاشتراكية؛ وعلم النفس المجتمع الغربي يخدم قيم الحرية والفردية والتنافسية؛ وهذا يدل أنه لا يمكن بحال التحيز والحياد في الدراسات العلمية مهما كانت[20].

فإذا كان علم النفس بالصورة التي ذكرنا؛ كانت نتائج الدراسات التي يتم الوصول إليها غير حتمية، تتعلق بعلم نفس الإنسان في المجتمع الغربي ليس غير، ولا يمكن تعميمها على كل إنسان في أي مجتمع كان.

و الخلاصة أن علم النفس في وضعه الحالي؛ لا يأخذ وضع العلم الدقيق الموثوق الذي ينبغي أن يطبق كاملا، وإنما يطبق بحذر بعد الانتقاء والنقد والتمحيص والاختبار.

المطلب الثاني: الحلول المقترحة لتجاوز إشكالات علم النفس:

ولتجاوز الإشكالات المعرفية التي تعتور علم النفس يقترح الباحثون بدائل؛ منها:

- تصحيح الإطار الفلسفي لعلم النفس.
- الأخذ بمفهوم العلمي القرآني بدلا من مفهومه النفساني.
- العمل بالمنهج الإسلامي القطعي بدلا من منهج علم النفس النسبي.

وشرح هذه المقترحات في الفروع الآتية:

الفرع الأول: تصحيح الإطار الفلسفي لعلم النفس:

المقصود بتصحيح الإطار الفلسفي لعلم النفس أن نجيب عن سؤال ما الإنسان؟ انطلاقا من المنظور القرآني والثقافة الإسلامية؛ بأن الإنسان مادة وروح، والروح هو الأساس في تكوين الإنسان والجسد تابع لها، والروح نفخة غيبية من أمر الله تتعلق بها الحياة، لا يعلم حقيقتها وكنهها إلا الله عز وجل وقد قال تعالى:" **قل الروح من أمر ربي**"[21]، والقصد من الإبهام وترك التفصيل "ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها، وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا؛ كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى، وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز"[22].

ومن صميم عقيدة المسلم الإيمان بأن الروح سترجع إلى خالقها عز وجل، وستحاسب على عملها إن خيرا وإن شرا، ومن ثَمَّ تُنعَّم أو تُعَذَّب، وهذا أمر يعدِّل من سلوك الإنسان حتما، ويعالج كثيرا من مشاكله النفسية وأمراضه المعنوية، التي لم يستطع علم النفس أن يجد لها حلًّا - بالرغم مما وصل إليه من التطور-، ولن يستطيع ذلك إلا باستحضار هذه القضية الإيمانية الأساسية.

لقد أدى إغفال علماء النفس المحدثين للجانب الروحي من شخصية الإنسان إلى قصور واضح في فهمم لطبيعته فهما صحيحا، وتضارب كبير في تحديد سلوكه السوي من غيره، كما أفضى إلى عدم الاهتداء لطريقة مثلى في العلاج النفسي لاضطرابات الشخصية لديه[23].

وقد أدرك خلل إقصاء الروح كثير من المحللين النفسيين، من هؤلاء "إيريك فروم" الذي يقول:" أصبح هذا العلم يعالج كل شيء ما عدا الروح؛ إذ حاول هذا العلم أن يفهم مظاهر الإنسان التي يمكن فحصها في المعمل، وزعم أن الشعور، وأحكام القيمة، ومعرفة الخير والشر؛ ماهي إلا تصورات ميثافيزيقية، تقع خارج مشكلات علم النفس، وكان اهتمامه ينصب في أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج علمي مزعوم، وذلك بدلا من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الإنسان الهامة؛ وهكذا أصبح علم النفس علما يفتقر إلى موضوعه الرئيسي وهو الروح، وكان معنيا بالميكانيزمات، وتكوينات ردود الأفعال والغرائز، دون أن يعنى بالظواهر الإنسانية المميزة أشد تمييز للإنسان: كالحب والعقل والشعور والقيم"[24].

الفرع الثاني: الأخذ بمفهوم العلمي القرآني بدلا من مفهومه النفساني:

بالرجوع إلى مفهوم العلمي في الإسلام نجده يعتبر أن ما ثبت بالوحي هو أعلى درجات اليقين، ويعتبر في كثير من الأحيان ما ثبت بالمشاهدة والحس من قبيل الظن؛ بل ومن قبيل الوهم والخطأ، فالمسلم يرى أن القرآن الكريم هو كتاب أنزل لصلاح الإنسان، والسنة النبوية هي التطبيق العملي لهذا الكتاب ، وهما القانون الذي إذا امتثله والتزمه كان خليفة كما أراد الله عز وجل؛ لأنهما بمثابة إرشادات الصانع لتشغيل المصنوع، فكل آلة يصنعها الإنسان يلحق بها دفتر التشغيل

المشتمل على إرشادات التسيير ومسببات العطب والفساد، وهذا لأن صانعها أدرى بها وأعلم من غيره بأسباب السلامة وموجبات الفساد فيها، وكذلك الشأن بالنسبة للإنسان مع خالقه جل وعلا، وفي هذا يقول الله عز وجل: **"ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"**[25] .

الفرع الثالث: العمل بالمنهج الإسلامي القطعي بدلا من منهج علم النفس النسبي:

سبق بيان أن علم النفس يقوم في دراسة الإنسان وتشخيص مشكلاته النفسية على رصد الظواهر الإنسانية في المختبرات في كثير من الأحيان، وباستقراء ناقص في المجتمع أحيانا أخرى، ثم ملاحظتها ووصفها وتحليلها؛ فتكون النتائج نسبية، وأحيانا كاذبة غير صحيحة، وأما منهج القرآن الكريم والسنة النبوية فينبني على الدخول إلى أعماق النفس البشرية، والغوص في أغوارها، وكشف ما بها؛ فتكون النتائج يقينية قطعية؛ فعلم النفس رغم ما توصل إليه من تطور في الآليات، ودقة مناهج في المختبرات؛ لم يستطع أن يكتشف أعماق نفس الإنسان كما اكتشفها القرآن وعبر عنها[26].

وكمثال على هذه المفارقة ما ورد في الصحيح أنَّ عِتْبَانَ بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: "يا رسول الله قد أنكرت بصري؛ وأنا أصلي لقومي فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم؛ لم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم، ووددت يا رسول الله، أنك تأتيني فتصلي في بيتي، فأتخذه مصلًّى، قال: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سأفعل إن شاء الله» قال عتبان: فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر حين ارتفع النهار، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذنت له، فلم يجلس حتى دخل البيت، ثم قال: «أين تحب أن أصلي من بيتك» قال: فأشرت له إلى ناحية من البيت، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر، فقمنا فصفنا فصلى ركعتين ثم سلم، قال وحبسناه على خزيرة صنعناها له، قال: فآب في البيت، رجال من أهل الدار ذوو عدد، فاجتمعوا، فقال قائل منهم: أين مالك بن الدخيشن أو ابن الدخشن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق لا يحب الله ورسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقل ذلك، ألا تراه قد قال: لا إله إلا الله، يريد بذلك وجه الله " قال: الله ورسوله أعلم، قال: فإنا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله"[27].

وبالنظر إلى الحديث يظهر الاختلاف بين حكم الرجل وحكم النبي صلى الله عليه وسلم على مالك بن الدخشن رضي الله عنه، وهذا الاختلاف مرده إلى المنهج الذي اعتمده كل منهما في الحكم؛ فالرجل اعتمد المنهج التجريبي القائم على المشاهدة والحس والعيان؛ فحكم على مالك بالنفاق استنادا إلى ما رآه عليه من التوجه والنصيحة للمنافقين والمخالطة لهم؛ بينما اعتمد النبي صلى الله عليه وسلم منهج الغوص في عمق النفس فحكم عليه بالإيمان تأسيسا على إخلاصه في النطق بكلمة الشهادة.

المبحث الثاني: معالم علم النفس الإسلامي ومعضلاته:

يشتمل هذا المبحث على مطلبين:

المطلب الأول: معالم علم النفس الإسلامي.

المطلب الثاني: معضلات علم النفس الإسلامي الإبستمولوجية.

وتفصيل هذه المطالب كالآتي:

المطلب الأول: معالم علم النفس الإسلامي:

نتكلم في هذا المطلب عن معالم علم النفس الإسلامي في كتب السابقين، ونتلمس بعض آثاره في مصنفات الماضين؛ لنصل في الأخير إلى أن هذا العلم قد مارسه الأوائل بشكل ما، وتكلموا عن بعض مباحثه بصورة معينة؛ إلا أنهم لم يسموه بهذا الاسم ولم ينعتوه بهذا الوسم.

من الملاحظ على الكتب المؤرخة من قبل الغرب في تاريخ علم النفس الحديث إغفال إسهامات علماء المسلمين الأوائل في إثراء هذا العلم وتطويره، وكونهم ابتكروا نظريات جديدة لم يسبقوا إليها فيه؛ بل وإهمال ما أحدثوه من تأثير في علماء أوروبا في القرون الوسطى حتى عصر النهضة الحديثة من خلال حركة الترجمة التي حمل لواءها المستشرقون، والسكوت عن حقيقة هذا التأثير تبييت لنية السرقة العلمية الممنهجة، ويبعد أن يكون سببه الجهل بتراث المسلمين؛ لأن أبرز علماء المسلمين الذين تكلموا في النفس الإنسانية ترجمت كتبهم ووصلت مؤلفاتهم إلى قلب عواصم أوروبا كابن سينا وابن رشد والغزالي وأضرابهم، ولعل مسؤولية ذلك ترجع إلى عدم اهتمام علماء النفس المسلمين المحدثين بدراسة تراثهم النفسي، ونشر مباحثه، وإبراز نظرياته التي سبقوا إليها، والأدهى من ذلك أن كثيرا منهم انبهر بما عند الغرب، وعكف على محرابه[28].

ومن أمثلة ما سبق إليه العلماء المسلمون في علم النفس، اكتشاف ابن سينا لما يسمى بعملية "الإشراط" التي تنسب إلى الفسيولوجي الروسي "إيفان بافلوف"، حيث لاحظ ابن سينا أن بعض المنبهات عند الإنسان والحيوان تقترن باستجابات معينة، كالطعام المقترن باللذة، والألم المقترن بضرب العصا، فيحتفظ كل منهما بهذه الصور؛ فتصبح رؤية الطعام والعصا محفزة للشعور باللذة والألم، وهكذا الحال في أغلب أفعالهما فهي تقوم على هذا المبدأ، وهذه هي الاستجابة الشرطية التي قال بها بافلوف فيما بعد، والتي تبناها بعض علماء النفس من المدرسة السلوكية كإحدى طرق التعليم المهمة، والتي تفسر سلوك الإنسان والحيوان بالارتباط بين المثيرات والاستجابات، المتلقاة من التجارب والخبرات[29].

وقد توصل ابن سينا إلى ما يسمى الاقتران الشرطي بين المنبهات والاستجابات قبل علماء النفس بقرون، وفي ذلك يقول: "إن الحيوان إذا أصابه ألم أو لذة، أو وصل إليه نافع حسي أو ضار حسي مقارنا لصورة حسية، فارتسم في المصورة صورة الشيء وصورة ما يقارنه، وارتسم في الذكر معنى النسبة بينهما والحكم فيها، فإن الذكر لذاته وجبلته ينال ذلك؛ فإذا لاح للمتخيلة تلك الصورة من خارج تحركت في المصورة، وتحرك معها ما قارنها من المعاني النافعة أو الضارة، وبالجملة المعنى الذي في الذكر على سبيل الانتقال والاستعراض الذي في طبيعة القوة المتخيلة، فأحس الوهم بجميع ذلك معا فرأى الوهم مع تلك الصورة، وهذا هو على سبيل يقارب التجربة؛ ولهذا تخاف الكلاب المدر والخشب وغيرها"[30].

ومن نماذج أسبقية علماء المسلمين في بعض النظريات النفسية أن الكندي وأبا بكر الرازي، وابن مسكويه، وابن حزم والغزالي وفخر الدين الرازي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم أول من نبه على ضرورة تغيير أفكار الفرد ومعتقداته السلبية أو الخاطئة في العلاج النفسي، لما لها من ارتباط وثيق بالسلوك، وكذا عنايتهم بأهمية تغيير الخُلُق المذموم بضده، وكانوا بذلك قد سبقوا أتباع المدرسة السلوكية الذين دعوا إلى هذا الأمر[31]، وأمثال هذا كثير يمكن إلفاؤه في كتب علمائنا الأجلة [32].

المطلب الثاني: معضلات علم النفس الإسلامي الإبستمولوجية:

أشرنا في المطلب السابق إلى عناية المسلمين بمباحث من علم النفس؛ لكن ومع كل ما للحضارة الإسلامية من تراث زاخر في جوانب من هذا العلم؛ فهل ارتقى هذا التراث إلى تأسيس علم نفس إسلامي مستقل أصيل؛ يؤهل لصياغة نظرية شاملة ومتكاملة مضاهية لما عند الغرب؟

الجواب عن هذا الإشكال يقتضي أن نخضع ما كتب في علم النفس الإسلامي لاختبار إبستيمولوجي ومحاكمة معرفية؛ لمعرفة مدى توفر معيار العلمية في الدرس النفسي الإسلامي، وهذا يقتضي استدعاء أهم المعضلات المنهجية والأسئلة الإبستيمولوجية التي تصادم كل الأنساق المعرفية، بحيث لا ترتقي هذه الأنساق إلى رتبة العلمية إلا بتجاوز هذه العقبات.

يرتكز الاختبار الابستيمولوجي لعلم النفس الإسلامي على أربعة أسئلة تنطوي على معضلات وإشكالات، تبدأ بمعضلة التأصيل؛ ثم معضلة المصطلح؛ ثم معضلة المنهج؛ وتنتهي بمعضلة التأويل، وسأفرد لتفصيل تلكم المعضلات أربعة فروع على النحو الآتي:

الفرع الأول: علم النفس الإسلامي ومعضلة التأصيل:

نعني بتأصيل علم النفس الإسلامي تلك الحركة الفكرية التي ظهرت في شكل بحوث نفسية عند بعض الباحثين المسلمين في أوائل منتصف القرن العشرين، حيث عنيت برد مسائل علم النفس الحديث إلى أصول إسلامية؛ بربطها بنصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية والاستشهاد لها بأقوال علماء مسلمين سابقين، وما تبعها من مناقشات وانتقادات ومحاورات وشروحات مؤيدة أو مناقضة.

يرى بعض الباحثين أن محاولات التأصيل الإسلامي لعلم النفس قد انطوى على عديد من الإشكالات؛ منها: أن هذه المحاولات أنتجت مجموعة كبيرة من الأدبيات **المتباينة** في المواضيع والمصطلحات والمناهج؛ لا يكاد أحد منها يشبه الآخر، كما أن تلك الدراسات كانت عبارة عن ردات فعل مستعجلة أكثر منها بدائل حقيقية، انطلقت من دوافع **دغمائية** متعصبة تنبذ كل دخيل، وترى أن كل ما يأتي من خارج المنظومة الإسلامية لا يصلح لعلاج مشكلات النفس الإنسانية، هذا بالإضافة إلى الجهود المعرفية المركبة التي تقتضي الإلمام التام بنظريات علم النفس المعاصر ومسائله الجزئية، مع الإحاطة الكاملة بمعاني النصوص الشرعية ومرامي كلام العلماء، ولا تتأتَّى عملية التدوين في ظل طغيان التبعية للغرب وهيمنة التخلف الحضاري؛ لأن تطور العلوم تابع لتطور الحضارة [33]؛ لذلك يرى سعد الحاج بن جخدل أن نستدعي سؤال التأهيل بدل سؤال التأصيل، وذلك بتسليط الضوء وتدقيق النظر على ما هو موجود من بحوث سيكولوجية بغية تطويرها وتحويرها وصياغتها بما يتوافق والخصوصية الثقافية الإسلامية، واطِّراح تلك المباحث والرؤى التي تتصادم وثوابت الدين الإسلامي، وتأسيس مقاربة تقوم على اعتبار علم نفس الشخصية الإسلامية فرعا من فروع علم النفس المعاصر، وإنشاء "بحوث جديدة تقوم على مبدأ التأصيل الاستشكالي من خلال إعادة الاعتبار للمشكلات السيكولوجية الحقيقية التي تواجه مجتمعاتنا؛ على أن تؤسس هذه البحوث لمقاربة إسلامية تضم إلى باقي مقاربات علم النفس المعاصر الهادفة إلى تقديم حلول للإنسانية جمعاء"[34].

ولا يسلَّم لدعوى التأهيل بدل التأصيل بحجة صعوبة الصياغة وعدم الحاجة لها في الوقت الراهن؛ لأن الصعوبة لا تعني الاستحالة وعدم الإمكان، كما أن التأصيل لا ينافي التأهيل إذ هو هو؛ فتكون الحاجة إلى التأهيل نفس الحاجة إلى التأصيل، إضافة إلى أن ضرورة التأصيل يلح على استحضارها التباين الذي قد يصل إلى حد التناقض بين الجذور الفلسفية لكلا المنظورين الإسلامي والغربي كما تبين، لاسيما المفاهيم المحورية كالنفس و الإنسان.

الفرع الثاني: علم النفس الإسلامي ومعضلة المصطلح:

لا يكون العلم علما مستقلا إلا بأن تكون له مصطلحاته الخاصة، ولا يمكن أن تتبلور العلوم وتتأسس مالم تتبلور مصطلحاتها ووتتمايز، ولا سبيل إلى الولوج إلى أي علم إلا بفهم مصطلحاته وفقهها، ومدار تجديد العلوم على تجديد المصطلحات وتحيين معانيها[35].

من المشكلات المصطلحية التي يعاني منها علم النفس الإسلامي أنه يفتقد إلى قاموس مصطلحي مستقل وواضح، والشاهد على هذا التحكم المصطلحي أن الباحثين فيه لم يتفقوا على اسم يسمون به هذا العلم، ولا على تعريف جامع لشتات له مانع من التباسه بغيره، كونه تتجاذبه مجموعة من المصطلحات المختلفة المضمون؛ فلا يُدرى أيطلق عليه علم النفس الإسلامي؟ أم التأصيل الإسلامي لعلم النفس؟ أم أسلمة علم النفس؟ أم التوجيه الإسلامي لعلم النفس؟ أم التفسير الإسلامي للسلوك؟[36]

ترتب على الالتياث في المفهوم الرئيسي لهذا العلم زيادة في الغموض واللبس المفاهيمي الذي نتج عنه تداخل وتضخم في المصطلحات الواصفة للمفاهيم الفرعية، بعضها اجتهادي وبعضها وافد من علم النفس المعاصر وبعضها مستحضر من النصوص الشرعية والأدبيات الإسلامية، دون عناية بدلالاتها الحقيقية ولا بسياقات ورودها، تصب معظمها في الجانب المتعلق بالصحة النفسية الذي هو جزء من جملة أكثر من خمسين جزءا تشكل فروع علم النفس، لا تكاد توجد لها مصطلحات تحمل دلالاتها وتحيط بمعانيها في علم النفس الإسلامي[37].

إن تجاوز المعضلات المصطلحية يحتاج إلى جهود علمية منظمة تنطلق من إحصاء المصطلحات النفسية الإسلامية الأصيلة والإحاطة بمضامينها في سياقات ورودها، ثم حشد مصطلحات علم النفس المعاصر وفهم معانيها ونقدها، وغربلتها، والتعبير عنها بلغتنا، ثم دمج الجميع وإعادة صياغته في محاولة لتأسيس وإنتاج قاموس مصطلح خاص ومتميز، ثم توظيفه وتداوله في الخطاب التخصصي والبحث العلمي[38].

الفرع الثالث: علم النفس الإسلامي ومعضلة المنهج:

لا يكتمل علم النفس الإسلامي إلا بوجود منهج علمي واضح ومنضبط يسلكه الباحثون، سواء من ناحية التأصيل أو من ناحية التأسيس، وهو ما نراه غائبا غيابا تاما في الدراسات النفسية الإسلامية، وأكثر المناهج استخداما في علم النفس هو المنهج التجريبي، وقد بعض الباحثين باستبعاده من ميدان هذا العلم بحجة استحالة تطبيقه لما للظاهرة النفسية من خصائص تحول دون تطبيق هذا المنهج، منها كونها ظاهرة فردية وحدسية ذاتية لا يمكن أن يعرفها أو يعبر عنها غير صاحبها، ومنها أنها ظاهرة متشابكة يتداخل فيها البعد الاجتماعي مع النفسي، ومنها كونها متغيرة تخضع للتقلب الدائم للشعور، ومنها كونها ظاهرة كيفية غير كمية يمكن وصفها ولا يمكن قياسها، وهذا يعني أنها ظاهرة يصعب ملاحظتها؛ لأنها كيفية شعورية لا يمكن تعميمها، وهي ذاتية تختلف من باحث لآخر، تحكمها شخصية الباحث وانتماءاته وديانته وبيئته؛ وبذلك تتعذر فيه الموضوعية والعلمية، غير أنه ومع كل هذه العقبات التي تعترض استخدام المنهج التجريبي في الظاهرة النفسية إلا أنه لا يمكن تعميم هذا الرأي؛ لأنه ومع تأسيس مخابر تجريبية لعلم النفس مع رواد المدرسة السلوكية والفيزيولوجية أمكن دراسة بعض الظواهر دراسة موضوعية[39].

لكن يبقى علم النفس علما له خصوصياته ومزاياه؛ فهو ليس استنتاجيا كالرياضيات ولا استقرائيا كالفيزياء؛ ولذلك يمكن الانفتاح فيه على مناهج متعددة تجمع بين مناهج البحث العلمي ومناهج العلوم الإنسانية؛ بل وتوليد مناهج معرفية سيكولوجية جديدة، والعلوم حينما تغير من مناهجها تصبح أكثر منهجية[40]، وليس بعيدا أن يستأثر علم النفس الإسلامي بمناهج مبتكرة لم تطبق بعد.

الفرع الرابع: علم النفس الإسلامي ومعضلة التأويل:

من المشكلات العويصة التي تعترض علم النفس الإسلامي مشكلة التأويل الذي يعرف على أنه بيان ما يؤول إليه كلام المتكلم، أو صرف اللفظ عن ظاهره بدليل، والمقصود بمشكلة التأويل التفسيرات المختلفة لنصوص الكتاب والسنة التي تحكمها طبيعة المذهب العقدي و الكلامي أو الفرقة والطائفة المنتسب إليها، فمعلوم أن الصراعات والمذهبية والطائفية التي وصلت إلى حد التعصب بل التكفير والتناحر داخل الساحة الإسلامية لها اعتبار في فهم نصوص الكتاب

والسنة التي يستنجد بها في تأسيس علم نفس إسلامي؛ إذ لا شك أن أي استعانة بأفكار أحد رواد الطائفة السنية سيقابل بالرفض من أتباع المدرسة الشيعية، وفي المقابل أي استدعاء لأفكار الطائفة الشيعية سيلقى استنكارا من منتسبي الطائفة السنية، وكذلك الحال في الدائرة السنية بين الصوفية والوهابية، أوبين الأشاعرة والتيمية، أو بين الأصولية والحداثية...وسيزداد الأمر تعقيدا إذا ما اعتبرنا تعدد المدراس النفسية المعاصرة؛ فعن أي علم نفس إسلامي نتحدث عن السني أو الشيعي؟ أم عن الصوفي والسلفي؟ أم عن المدرسي و الصناعي؟[41] وعلى كل فالتقارب ممكن إذا ما كان الانطلاق من نقاط مشتركة وقواعد متفق عليها وأصول مجمع عليها؛ إذ هي موجودة ولاشك.

وليس عجيبا أن يظهر الحديث عن الإشكالات المنهجية في علم ما متأخرا عن بحث مسائل العلم نفسه؛ فهذا هو شأن كل العلوم من غير استثناء، "حيث يهتم العلماء ببحث المسائل وصناعة المصطلحات والمفاهيم؛ فإذا ما انحازت الموضوعات المعرفية إلى بعضها البعض، وتشكلت الأنساق والنواظم، انفسح المجال بعد ذلك لاختبار مبادئ ذلك العلم وفحص قيمته وحصيلته الموضوعية؛ فالتفكير الإبستمولوجي كما يقول "جان بياجيه" يولد دائما بسبب أزمات هذا العلم أو ذاك"[42].

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة أخلص إلى النتائج الآتية:

- مصطلح علم النفس الإسلامي مصطلح سائغ ومشروع من الناحية المعرفية، ولا مشاحة في الاصطلاح، لكنه يفتقر إلى مزيد من البيان عن محتواه، والكشف عن مضامينه وأبعاده ومناهجه.
- تنحصر أهم إشكالات علم النفس الحديث في أنه حصر مفهوم الإنسان في البعد المادي؛ وكونه بالغ في استعمال المنهج التجريبي؛ إضافة إلى عدم إمكانية تعميم نتائجه؛ لأنه كثيرا ما يفتقر إلى الموضوعية.
- لتجاوز الإشكالات المعرفية التي تعتور علم النفس يقترح الباحثون بدائل؛ منها: تصحيح الإطار الفلسفي لعلم النفس؛ والأخذ بمفهوم العلمي القرآني بدلا من مفهومه النفساني؛ والعمل بالمنهج الإسلامي القطعي بدلا من منهج علم النفس النسبي.
- من النماذج الإسلامية السباقة في بعض النظريات النفسية ما خلفه علماء أمثال ابن سينا والكندي وأبي بكر الرازي وابن مسكويه وابن حزم والغزالي وفخر الدين الرازي وابن تيمية وابن القيم وأضرابهم.
- يمكن أن نجمل معضلات علم النفس الإسلامي الإبستمولوجية في أربعة: تبدأ بمعضلة التأصيل؛ ثم معضلة المصطلح؛ ثم معضلة المنهج؛ وتنتهي بمعضلة التأويل.
- نعني بتأصيل علم النفس الإسلامي تلك الحركة الفكرية التي ظهرت في شكل بحوث نفسية عند بعض الباحثين المسلمين في أوائل منتصف القرن العشرين، حيث عنيت برد مسائل علم النفس الحديث إلى أصول إسلامية؛ بربطها بنصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية والاستشهاد لها بأقوال علماء مسلمين سابقين؛ وما تبعها من مناقشات وانتقادات ومحاورات وشروحات مؤيدة أو مناقضة.
- ولا يسلَّم لدعوى التأهيل بدل التأصيل بحجة صعوبة الصياغة وعدم الحاجة لها في الوقت الراهن؛ لأن الصعوبة لا تعني الاستحالة وعدم الإمكان، كما أن التأصيل لا ينافي التأهيل إذ هو هو.
- إن الحاجة إلى التأهيل هي نفس الحاجة إلى التأصيل، إضافة إلى أن ضرورة التأصيل يلح على استحضارها التباين الذي قد يصل إلى حد التناقض بين الجذور الفلسفية لكلا المنظورين الإسلامي والغربي كما تبين، لاسيما المفاهيم المحورية كالنفس و الإنسان.
- من المشكلات المصطلحية التي يعاني منها علم النفس الإسلامي أنه يفتقر إلى قاموس مصطلحي مستقل وواضح، وتجاوز هذا الإشكال يتطلب جهود علمية منظمة تنطلق من إحصاء المصطلحات النفسية الإسلامية الأصيلة والإحاطة بمضامينها

في سياقات ورودها؛ ثم حشد مصطلحات علم النفس المعاصر وفهم معانيها ونقدها والتعبير عنها بلغتنا؛ ثم دمج الجميع وإعادة صياغته في محاولة لتأسيس وإنتاج قاموس مصطلح خاص ومتميز؛ ثم توظيفه وتداوله في الخطاب التخصصي والبحث العلمي.

- يمكن الانفتاح في علم النفس الإسلامي على مناهج متعددة تجمع بين مناهج البحث العلمي ومناهج العلوم الإنسانية؛ بل وتوليد مناهج معرفية سيكولوجية جديدة.
- والمقصود بمشكلة التأويل التفسيرات المختلفة لنصوص الكتاب والسنة التي تحكمها طبيعة المذهب العقدي و الكلامي و الطائفة المنتسب إليها، والتقارب ممكن إذا ما كان الانطلاق من نقاط مشتركة وقواعد متفق عليها وأصول مجمع عليها؛ إذ هي موجودة ولاشك.

كما لا يفوتني أن أنبه على التوصيات الآتية:

أولا: يتوجب على المشتغلين بالبحث في علم النفس الإسلامي رسم خطة واضحة، ووضع مسلك منتظم، وخط طريق بين المعالم؛ من أجل التأسيس لهذا العلم.

ثانيا: خليق علماء الأمة ومنظريها وباحثيها أن يوحدوا جهودهم المعرفية ويعضد بعضهم بعضا من أجل ابتكار تصور أصيل لعلم نفس إسلامي جديد، يتأسس على الكتاب والسنة وفهمهما وفق مناهج علماء الأمة المجمع على إمامتهم، مضيفين إلى ذلك ما كتبته أنامل أفاضل العلماء وأذكياء الفقهاء من شتى المذاهب؛ إذا كان لا يتعارض مع مناهج العلماء المجمع على إمامتهم.

ثالثا: لا يمكن بحال أن يستغنى في النظرية الجديدة لعلم النفس الإسلامي عما كتبته المدارس الغربية بشتى توجهاتها، لكن بعد نخله وتهذيبه ونقده، وتطوير مناهجه، وإعادة تصحيحه.

رابعا: بعد التمكن و التضلع من الفهم الصحيح للكتاب والسنة و الإحاطة بآثار العلماء، وعرض ما استورد عن الغرب على النقد؛ يتوجه نخبة الباحثين لسبك كل ذلك في نظرية نفسية إسلامية متميزة، تشتمل على مصطلحات خاصة، ومناهج فريدة، وتصورات جديدة.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن سينا، الشفاء: الطبيعيات، ت سعيد زايد، مركز تحقيق التراث ابن سينا، مصر، ط1، 1983، ص6.
2. أحمد ذيب، مستويات الإشكال المنهجي في الدراسات المقاصدية المعاصرة: مقاربة إبستمولوجية ومدخل إشكالي، مجلة أعمال المؤتمر الدولي الرابعة عشر للفقه المالكي: الإتجاه المقاصدي في المذهب المالكي، 10-11-12 أفريل 2018.
3. اريك فروم، الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، د م ط.
4. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، د.ط، بيروت، لبنان،1982.
5. حيدر إبراهيم، علم الاجتماع والصراع الأيديولوجي في المجتمع العربي، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، المجلد 8، العدد 78، 31 أوت 1985.
6. خالد الجابر، محاضرة تعريف بالنظرية النفسية الشاملة في علم النفس الإسلامي، د م ط.
7. رفيق حبيب، إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط 2، 1997.
8. زادان المرزوقي، نقد مصطلح علم النفس الإسلامي، مجلة الفيصل، 1 سبتمبر 2023 .

9. سعد الحاج بن جخدل، علم النفس الإسلامي: سؤال التأهيل لا سؤال التأصيل، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 39، فبراير 2018.
10. الشاهد البوشيخي، دراسات مصطلحية، دار السلام، القاهرة، مصر، ط 2، 2012.
11. عادل البقالي ومصطفى العادل، التكامل المعرفي في التراث العربي: النحو والبلاغة أنموذجا، دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية، ع 11، بيروت، لبنان، ط1، 2020.
12. عبد الستار إبراهيم، أسس علم النفس، دار المريخ، الرياض، السعودية،1987.
13. عبد الناصر السباعي، مشكلات علم النفس في ضوء التصور الغربي للإنسان دراسة تاريخية، مجلة المسلم المعاصر، العدد 57.
14. عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 7، 2001.
15. فتح الله كولن، البيان الخالد لسان الغيب في عالم الشهادة، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2017.
16. فتحي حسن ملكاوي ، منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية،ط2، 2016 .
17. القرطبي، تفسير القرطبي، ت أحمد البردوني وإبراهيم طفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1964.
18. محمد عثمان نجاتي وآخرون، علم النفس في التراث الإسلامي، دار السلام، القاهرة، مصر، ط 1، 2008.
19. محمد عثمان نجاتي، الإدراك الحسي عند ابن سينا: بحث في علم النفس عند العرب، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 3، 1980.
20. محمد عثمان نجاتي، الدراسات النفسانية عند العلماء المسلمين، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1993.
21. محمد عثمان نجاتي، مدخل إلى علم النفس الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 1، 2001.
22. همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، مركز نماء للبحوث والدراسات، دراسات فكرية 9، بيروت، لبنان، ط1، 2018.

الهوامش:

[1] فتحي حسن ملكاوي ، منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية،ط2، 2016 ، ص 42.

[2] همام محمد، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، مركز نماء للبحوث والدراسات، دراسات فكرية 9، بيروت، لبنان، ط1، 2018، ص 155.

[3] عادل البقالي ومصطفى العادل، التكامل المعرفي في التراث العربي: النحو والبلاغة أنموذجا، دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية، ع 11، بيروت، لبنان، ط1، 2020، ص 14.

[4] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، د.ط، بيروت، لبنان،1982، 484/2.

[5] عبد الستار إبراهيم، أسس علم النفس، دار المريخ، الرياض، السعودية،1987، ص21-22.

[6] خالد الجابر، محاضرة تعريف بالنظرية النفسية الشاملة في علم النفس الإسلامي، د م ط، ص 25 .

[7] محمد عثمان نجاتي، مدخل إلى علم النفس الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 1، 2001، ص16 .

[8] زادان المرزوقي، نقد مصطلح علم النفس الإسلامي، مجلة الفيصل، 1 سبتمبر 2023 .

[9] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، 33/1.

[10] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، 33/1.

[11] عبد الناصر السباعي، مشكلات علم النفس في ضوء التصور الغربي للإنسان دراسة تاريخية، مجلة المسلم المعاصر، العدد 57، ص 161.

[12] عبد الستار إبراهيم، أسس علم النفس، ص21-22.

[13] عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 7، 2001، ص 25.

[14] عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص 25.

[15] عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص 225.

[16] عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص 25.

[17] رفيق حبيب، إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط 2، 1997، 415/2.

[18] رفيق حبيب، إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، 415/2.

[19] حيدر إبراهيم، علم الاجتماع والصراع الأيديولوجي في المجتمع العربي ،مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، المجلد 8، العدد 78، 31 أوت 1985، ص 111.

[20] رفيق حبيب، إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، 424/2.

[21] الإسراء: 85.

[22] القرطبي، تفسير القرطبي، ت أحمد البردوني وإبراهيم طفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1964، 324/10.

[23] عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص 25.

[24] إريك فروم، الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، مكتبة غريب، القاهرة مصر، د م ط، ص 11.

[25] الملك:15.

[26] فتح الله كولن، البيان الخالد لسان الغيب في عالم الشهادة، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2017، ص 246.

[27] رواه البخاري (423)، ومسلم (33).

[28] محمد عثمان نجاتي وآخرون، علم النفس في التراث الإسلامي، دار السلام، القاهرة، مصر، ط 1، 2008، 17/1.

[29] محمد عثمان نجاتي، الإدراك الحسي عند ابن سينا: بحث في علم النفس عند العرب، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 3، 1980، ص177.

[30] ابن سينا، الشفاء: الطبيعيات، ت سعيد زايد، مركز تحقيق التراث ابن سينا، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 1983، ص6.

[31] محمد عثمان نجاتي، الدراسات النفسانية عند العلماء المسلمين، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1993، ص 7.

[32] انظر: "الإدراك الحسي عند ابن سينا: بحث في علم النفس عند العرب" و"الدراسات النفسانية عند العلماء المسلمين" لمحمد عثمان نجاتي، ، وعلم النفس في التراث الإسلامي لمجموعة من المؤلفين من إصدار المعهد العالي للفكر الإسلامي ، و"الدراسات النفسية عند المسلمين" لعبد الكريم العثمان، و"تاريخ الطب النفسي عند العلماء المسلمين" لعبد الفتاح العيسوي.

[33] سعد الحاج بن جخدل، علم النفس الإسلامي: سؤال التأهيل لا سؤال التأصيل، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 39، فبراير 2018، ص 97.

[34] سعد الحاج بن جخدل، علم النفس الإسلامي: سؤال التأهيل لا سؤال التأصيل، ص 100.

[35] الشاهد البوشيخي، دراسات مصطلحية، دار السلام، القاهرة، مصر، ط 2، 2012، ص 44.

[36] محمد عثمان نجاتي، مدخل إلى علم النفس الإسلامي، ص 15.

[37] سعد الحاج بن جخدل، علم النفس الإسلامي: سؤال التأهيل لا سؤال التأصيل، ص 107.

[38] الشاهد البوشيخي، دراسات مصطلحية: ص 43.

[39] الشاهد البوشيخي، دراسات مصطلحية: ص 43.

[40] أحمد ذيب، مستويات الإشكال المنهجي في الدراسات المقاصدية المعاصرة: مقاربة إبستمولوجية ومدخل إشكالي، مجلة أعمال المؤتمر الدولي الرابعة عشر للفقه المالكي: الإتجاه المقاصدي في المذهب المالكي، 10-11-12 أفريل 2018، ص 472، نقلا عن: Bachelard.Epistémologie.paris.P.U.F.1947.P: 129

[41] سعد الحاج بن جخدل، علم النفس الإسلامي: سؤال التأهيل لا سؤال التأصيل، ص 107.

[42] أحمد ذيب، مستويات الغلط المنهجي في الدرس المقاصدي المعاصر، ص 453.